أولا: الشعر

1- الإحياء الشعري في المشرق

تمهيد:

شهد الأدب العربي عبر مراحله التاريخية فترات من الازدهار، وفترات أخرى من الضعف والهبوط، وكثيرا ما كان ذلك مرتبطا بقوة دولة العرب والإسلام أو ضعفها، وحديثا أراد الأدباء العرب ولا سيما الشعراء النهوض بالأدب من نومته، فسمي أدب هذه الفترة بأدب الإحياء، والإحياء هو البعث وهما إعادة الحياة إلى الكائنات الهامدة أو الميتة، وأدب الإحياء هو أدب قام على أساس بعث الأدب القديم، وبث روح جديدة فيه، والأدب القديم لم يكن أدبا ميتا، إنما كان مهجورا أيام عصور الضعف والانحطاط الذي شهده الوطن العربي بسبب القطيعة مع القديم إبان حكم العثمانيين والمماليك، حيث انتشرت مظاهر التردي والانحطاط وفساد الحكم والاضطراب السياسي، وعدم تشجيع الحكام للشعر والشعراء وتقريبهم وتقديرهم، لكن في العصر الحديث انكب شعراء العصر على قراءة دواوين الشعر الجاهلي والشعر العباسي والإفادة منها، وكل قارئ أو حافظ يتأثر لا محالة بمقروئه وبمحفوظه، « فما كان الكاتب إلا رجلا من الناس يتأثر بما يقرأ ويحفظ، ثم يستلهم بعد ذلك ما قرأ وحفظ قبل مرحلة الكتابة وأثناءها معا [...] وبقدر ما يكون محفوظ الكاتب أجود أصلا، يكون إنتاجه أرقى وأقوى » ، لذلك بعثت أساليب القدامى وحتى موضوعاتهم في شعر المحدثين، فالنصوص تحيا وتعمر وتتجدد بفعل القراءة وبفعل الإبداع.

مظاهر الإحياء في عهد البارودي:

ظهر في عصر النهضة جيل من الشعراء العرب فتح عينيه على ذاته وتاريخ أمته وراح يتعقب أسباب تخلفه، وعوامل الجمود في مجتمعه، والركاكة في أدبه، فلم ير نموذجا إبداعيا يحاكيه سوى الأدب العربي القديم الراقي، فراح يقلده مدخلا فيه من الحياة الجديدة، مبتعدا عن كل غث وركيك، مضيفا على ذلك عذوبة القديم ورقة الحضارة الجديدة في جو من التشبيهات

والاستعارات والمجازات وجرت القصيدة المجرى التقليدي على وزن موحد وروي واحد، كما عالج الشعراء الموضوعات التقليدية مع شيء من طلاء الجديد.

وكان من زعماء هذه المرحلة (خليل الخوري 1836-1907)، (عائشة التيمورية 1840-1902)، (إسماعيل صبري 1854-1923)، (حفني ناصف 1856- 1919)، ولعل أول هؤلاء جميعا الشاعر محمود سامي البارودي ، هذا الشاعر الذي انكب على قراءة دواوين القدامى من الشعراء أمثال أبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، والمتنبي، لذلك فلا غرابة أن نجده في مقدمة ديوانه يقر بذلك في قوله:

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلمـــا
فلا يعتمدني بالإساءة غـــــافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

كما أورد الشاعر في مقدمة ديوانه مفهوما للشعر يمكن أن نعده رأيا وموقفا نقديا حول حقيقة الشعر الجيد ووظيفته وخصائصه من حيث اللفظ والمعنى، إذ يقول: «وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بلألائها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك، ويهتدي بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليما من وصمة التكلف، بريئا من عشوة التعسف، غنيا عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد».

وليصل الشاعر إلى مرتبة الإبداع الشعري الجيد، فإنه لا يبدأ من فراغ، لذا نجد البارودي يستحضر الشعر القديم من خلال معارضته لفحول الشعراء، فقد عارض النابغة من خلال قصيدته التي يقول فيها:

أمن آل "مية" رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مـزود
زعم البوارح أن رحلتنا غـدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود

بقوله:

ظن الظنون فبات غير موسـد حيران يكلأ مستنـير الفرقـــد
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم خوف التفرق أن أعيش إلى غد

كما يعارض أبا فراس الحمداني حين يقول مفتخرا:

ونحن أنـاس لا توسط بيننـــا لنا الصدر دون العالمـين أو القبـر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

بقوله:

وأني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

وقد يذهب في بعض أبياته إلى درجة المطابقة حين ينسج على منوال القدامى، ففي قصيدته التي نظمها بعد وصوله إلى منفاه بجزيرة "سرنديب" ورؤية صورة ابنته "سميرة" في المنام، يرسم بيتا بالقلم والمسطرة لبيت من قصيدة للشاعر أبي فراس الحمداني مع تغيير بعض المفردات، حين يقول:

علي طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

ويقول أبو فراس وهو في الأسر:

علي طلاب المجد من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب

ويقول على طريقة العرب:

ألا حي من أسماء بعض المنازل وإن هي لم ترجع بيانا لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت عليها أهاضيب الغيوم الحوافل
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم أراني بها ما كان بالأمس شاغلي
غدت وهي مرعى للضباء وطالما غنت وهي مأوى للحسان العقائل
فللعين منها بعد تزيال أهلها معارف أطلال كوحي الرسائل

فمن يقرأ الأبيات وبالتالي القصيدة - لولا معرفة مسبقة بأنها للبارودي - لا يتردد لحظة في أن ينسبها لواحد من فحول شعراء الجاهلية، فهو يستهلها بمقدمة طللية، إذ يذكر الحبيبة، ويلقي التحية على المنازل التى لا ترد جوابا، ثم يصف الديار وقد لعبت بها عوامل الطبيعة كل ملعب، والبيت الثالث يحيلنا على مطلع معلقة عنترة (...أم هل عرفت الدار بعد ترسم؟)، ثم يبكي ويتغزل، ويذكر الرعاة والقبائل كأنه أعرابي قح من أهل البادية، وبعدها يصف الحرب، وهذا كله في حلة من الألفاظ الجزلة، والتراكيب المتينة، وقد تحوجك بعض المفردات التي طالما وظفها الجاهليون إلى قاموس لغوي للوقوف على معانيها.

وقال يمدح الخديوي (عباس حلمي باشا الثاني) ويشكره على ما أولاه من حسن الرضا وذلك بعد عودته من سرنديب أواخر 1899:

عباس يا خير الملوك عدالـــة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتني منك الرضا وجلوت لي وجها قرأت البشر في أثنائه
فاسلم لملك أنت بدر سريـــره وعماد قوته ونصر لوائـــه

كما قال يهنئ الخديوي عباس بولده الأمير "محمد عبد القادر" في 1901:

أهلال أرض أم هلال سمـــاء شمل الزمان وأهله بضياء؟
بدرت لوامع منه شق وميضها حجب الظلام فماج في لألاء
وبدت أسرته فكانت غـــرة للملك فوق أسرة الجـــوزاء

وقال يعزي صديقا له:

أعزيك لا أنـي أظنك جازعـــا لخطب ولكني عمدت لواجب
وكيف أعزي من فرى الدهر خبرة وأدرك ما في طيه من عجائب
فيا صاحبي مهلا فلست بواجـد سوى حاضر يبكي فجيعة غائب
وصبرا فإن الصبر أكرم صاحب لمن بان عن مثواه أكرم صاحب

ويذهب الأستاذ عباس بن يحي إلى أن «البارودي ليس مجرد معيد ومكرر (مقلد) للإنتاج الشعري القديم، إنه يحاكيه يتابع منهجه وأسلوبه، وهو إلى جانب ذلك ذات تعيش في عصر آخر وتنفعل لقضايا جدت من حولها» ، فهو رجل فارس ومواطن حر لا يرضي بالذل والهوان، ويعز عليه أن يصبر قومه على الإقامة بوطن يحرم أهله من خيراته، في حين يتنعم فيه الدخلاء ويتحكمون في زمام الأمور، لذلك يدعو قومه إلى الاستفاقة، والوقوف في وجه الظلم والاستبداد:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنافـــع
أصبرا على مس الهوان وأنتمو عديد الحصى إني إلى الله راجـع
وكيف ترون الذل دار إقامـــة وذلك فضل الله في الأرض واسع

وقد يعمد إلى الهجاء وهو غرض تقليدي لكنه يضيف إليه من طرافة الجديد بحيث لا يصب هجاءه على الشخص بقدر ما يحارب به الأخلاق الفاسدة والخصال الذميمة:

وصاحب لا كان من صاحب أخلاقه كالمعدة الفاســـده
أقبح ما في الناس من خصلة أحسن ما في نفسه الجامده
لو أنه صور من طبعـــــــه كان لعمري عقربا راصده

وقال يصف الهرمين:

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
بناءان ردا صولة الدهـر عنهمـــــا ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهـــــدا لبانيــهما بين البرية بالفخـــــــر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصـــــر خلت وهما أعجوبة العين والفكر

ويرى إبراهيم أبو الخشب بأن«الذي يقرأ ديوان البارودي قراءة واعية لا يشك في أنه كان انتقالا للشعر من حال الركود أو الضعف إلى حال الازدهار والانتعاش» ، وذلك عن طريق محاكاة الشعراء الكبار، والاعتراف بشاعريتهم من أمثال (الحسن بن هانئ "أبي نواس"، ومسلم بن الوليد، وحبيب بن أوس الطائي "أبي تمام"، والوليد بن عبيد "البحتري"، وأحمد بن الحسين الجعفي "المتنبي")، وتجاوز شعر عصر الضعف، ومحاولة الإبداع والابتكار، وهو يشير إلى ذلك في ديوانه:

مضى حسن في حلبة الشعر سابقا وأدرك لم يسبق ولم يأل مسلم
وباراهما الطائي فاعترفت لـــــه شهود المعاني بالتي هي أحكم
وأبدع في القول الوليد فشعـــــره على ما تراه العين وشي منمنم
وأدرك في الأمثال أحمد غايـــــة تبأ الخطى ما بعدهـا متقـــدم
وسرت على آثارهم ولربمـــــــا سبقت إلى أشياء والله أعلـــم

فهو قد نظم في الأغراض والموضوعات القديمة كالمدح، والهجاء، والفخر، ووصف الحروب، والغزل، والحكمة، والزهد، والرثاء، والتعزية، والتهنئة مجاراة للأقدمين محافظا على شكل القصيدة العمودية القديمة ذات الصدر والعجز والقافية الموحدة، والألفاظ والعبارات الجزلة، كما تمشى مع المحدثين حين كتب في الشعر السياسي، وحب العدالة والحرية والمساواة، ووصف الطبيعة والآثار المصرية، والحنين إلى الوطن.